الفصل الحادي عشر

جزيرة واحدة، شعبان، تاريخان: جمهورية الدومينيكان وهاييتي

الاختلافات ■ التاريخ ■ أسباب الاختلاف ■ تأثيرات بيئة الدومينيكان ■ بالاغور ■ بيئة الدومينيكان اليوم، المستقبل ■

لا بد لكل مهتم بفهم مشكلات العالم المعاصر، من فهم الحدود البالغ طولها 120 ميلاً بين جمهورية الدومينيكان وهاييتي، الدولتين اللتين تقتسمان جزيرة هيسبانيولا الكبيرة في البحر التي تقع جنوب شرق فلوريدة (خريطة). من على متن طائرة تحلق على ارتفاع عالٍ، تبدو الحدود مثل خط رفيع متعرج، يقطع الجزيرة اعتباطياً مثل سكين، ويقسم بشكل متمايز جزءاً داكناً وأكثر خضرة إلى الشرق من الخط (جانب الدومينيكان) عن جانب بني شاحب إلى الغرب من الخط (جانب هاييتي). على الأرض، يمكن للمرء الوقوف على الحدود في أماكن عديدة، مواجهة الشرق والنظر إلى غابات الصنوبر، والاستدارة ليواجه الغرب ولا يرى شيئاً سوى أراضٍ خالية تقريباً من الأشجار.

يمثل ذلك التناقض الصارخ فرقاً بين دولتين بوصفهما كلاً واحداً. أصلاً، كان كلا الجزئين من الجزيرة مغطى بالغابات إلى حدٍ كبير: لاحظ أول الزوار الأوروبيون أن أهم ما يميز هيسبانيولا اتساع غاباتها المليئة بالأشجار ذات الأخشاب القيّمة. كان كلا البلدين قد فقد غطاء الغابات، لكن خسارة هاييتي كانت أكبر (صور 23، 24)، إلى حد أنها الآن غير موجودة سوى في سبعة بقاع أساسية، اثنتان منها فقط محميتان بوصفهما منتزهين وطنيين، تتعرض أشجارهما لعمليات قطع غير قانونية. اليوم، ما تزال 28% من جمهورية الدومينيكان مغطاة بالغابات، مقابل 19% فقط من هاييتي. فوجئت من اتساع الغابات حتى في المنطقة التي تضم أغنى سهول جمهورية الدومينيكان، التي تقع بين أكبر مدينتين وهما سانتو دومينغو وسانتياغو. في هاييتي وجمهورية الدومينيكان

كما في كل مكان آخر من العالم، تشمل عواقب كل ذلك التصحر خسارة الأخشاب ومواد البناء الأخرى، وتعرية التربة، وانخفاض خصوبة التربة، وتراكم الرواسب في الأنهار، وخسارة تجمعات المياه ومن ثم خسارة احتمال توليد الطاقة الكهرومائية، وانخفاض نسبة هطل الأمطار. تبرز كل تلك المشكلات بشكل أكثر حدة في هاييتي منها في جمهورية الدومينيكان. في هاييتي، الأكثر إلحاحاً من تلك العواقب التي ذكرتها آنفاً هي مشكلة النقص في الأخشاب لصنع الفحم، وقود هاييتي الرئيس للطهو.

ينعكس الفرق في غطاء الغابات بين البلدين فرقاً في اقتصادهما. كل من هاييتي وجمهورية الدومينيكان بلدان فقيران، يعانيان الظروف السلبية المعتادة لمعظم دول العالم الاستوائية الأخرى التي كانت سابقاً مستعمرات أوروبية: حكومات فاسدة أو ضعيفة، ومشكلات خطيرة في الصحة العامة، وانخفاض الإنتاجية الزراعية في المناطق المعتدلة. وفقاً لكل تلك الاعتبارات، مشكلات هاييتي أكثر خطورة من تلك التي تواجهها جمهورية الدومينيكان. إنها البلد الأفقر في العالم الجديد، وأحد أفقر البلدان في العالم خارج إفريقية. لا تقدم حكوماتها الفاسدة باستمرار سوى القليل من الخدمات العامة؛ ويعيش الكثير من السكان أو معظمهم بشكل مستمر أو متناوب دون كهرباء، أو ماء، أو صرف صحي، أو عناية طبية، أو مدارس. هاييتي بين الدول الأكثر كثافة سكانية في العالم الجديد، وتتفوق في ذلك على جمهورية الدومينيكان كثيراً، ولا تحتل سوى ثُلث مساحة جزيرة هيسبانيولا فيما تضم ثُلثي عدد سكانها (نحو 10 ملايين)، وتصل الكثافة السكانية فيها إلى 1000 نسمة في كل ميل مربع. معظم هؤلاء الناس مزارعون بسطاء. اقتصاد السوق متواضع، ويتألف أساساً من إنتاج البن والسكر للتصدير، 20.000 موظف بأجور زهيدة في مناطق التجارة الحرة يصنعون الملابس وبعض السلع الأخرى المعدّة للتصدير، بعض مرافق قضاء العطلات على الساحل حيث يمكن للسياح الأجانب عزل أنفسهم عن مشكلات هاييتي، وتجارة كبيرة في نقل الممنوعات من كولومبية إلى الولايات المتحدة (لهذا يُشار إلى هاييتي أحياناً بـ«دولة الخدر»).

هناك استقطاب كبير بين طبقات الشعب الفقيرة التي تعيش في المناطق الريفية أو في أحياء فقيرة في العاصمة بورت-أو-برنس (ميناء الأمير)، ونخبة من السكان الأثرياء

هيسبانيولا المعاصرة

في الضاحية الجبلية الراقية بيشنفل الواقعة على بعد نصف ساعة بالسيارة من مركز بورت-أو-برنس، ويرتادون مطاعم فرنسية مكلفة تقدم نبيذاً فاخراً. نسبة النمو السكاني في هاييتي، ونسبة الإصابة بالإيدز، والسل، والملاريا بين الأعلى في العالم الجديد. السؤال الذي يطرحه كل زوار هاييتي على أنفسهم هو هل هناك أمل لذلك البلد؟، والإجابة المعتاد هي «لا».

جمهورية الدومينيكان بلد نامٍ أيضاً ويشترك مع هاييتي بالمشكلات نفسها، لكنه أكثر تطوراً والمشكلات فيه أقل حدّة. دخل الفرد أعلى خمسة أضعاف، ونسبة الكثافة السكانية والنمو السكاني أقل. على مدى السنوات الـ38 الماضية، بقيت جمهورية الدومينيكان اسمياً على الأقل ديمقراطية دون حدوث أي انقلاب عسكري فيها، ومع بعض الانتخابات الرئاسية منذ سنة 1978 حتى الآن التي أسفرت عن هزيمة رئيس في منصبه وفوز منافس له، إلى جانب آخرين بقوا بالإكراه والتهديد. ضمن اقتصاد مزدهر، تتضمن الصناعات التي تدر عملة أجنبية مناجم الحديد والنيكل، منجماً للذهب حتى وقت قريب، ومنجم فلز الألمنيوم سابقاً، وصناعات المناطق التجارية الحرة التي يعمل بها 200.000 شخص وتصدر منتجاتها إلى ما وراء البحار، وصادرات زراعية تضم البن، والكاكاو، والتبغ، والسيجار، والأزهار النضرة، والأفوكادو (جمهورية الدومينيكان ثالث أكبر مصدّر للأفوكادو في العالم)، والاتصالات، وصناعة سياحية كبيرة. تولد عشرات السدود طاقة كهرومائية. كما يعرف محبو الرياضات الأمريكيون، يخرج من جمهورية الدومينيكان أيضاً لاعبو كرة قاعدة مميزون. (كتبت المسودة الأولى لهذا الفصل بحالة صدمة، بعد أن شاهدت اللاعب الرائع من الدومينيكان بيدرو مارتينيز وفريقي المفضل بوسطن ريد سوكس يتعرضان للخسارة في الوقت الإضافي على يد خصمهم فريق نيويورك يانكيز في المباراة النهائية لبطولة الدوري الأمريكي سنة 2003). تتضمن القائمة الطويلة لاعبي كرة قاعدة آخرين من الدومينيكان، حققوا شهرة كبيرة في الولايات المتحدة، الأشقاء آلاو، وجواكيم أندوغار، وجورج بل، وأدريان بلتر، وريكو كارتي، وماريانو دونكان، وطوني فرنانديز، وبيدرو غويريرو، وخوان مارشال، وخوسيه أوفرمان، وطوني بيا، وألكس رودريغز، وخوان صاموبل، وأوزي فيرجل، وبالطبع «الملك» سامي سوزا. عندما يسير

المرء على طرق جمهورية الدومينيكان، لا يمكنه أن يقطع مسافة طويلة دون أن يرى لافتة تشير إلى أقرب استاد للبيزبل، كما تُعرف الرياضة محلياً.

تنعكس الفروق بين البلدين في نظامي منتزهاتهما الوطنية أيضاً؛ التي تكون صغيرة في هاييتي، تتألف من أربعة حدائق فقط تهددها انتهاكات الفلاحين الذين يقطعون الأشجار لصنع الفحم. على النقيض من ذلك، نظام حماية الطبيعة في جمهورية الدومينيكان الأوسع والأكبر نسبياً في الأمريكيتين، ويشمل 32% من مساحة البلاد ضمن 74 منتزهاً أو محمية، تضم كل الأنواع المهمة من الحيوانات والنباتات. يعاني النظام بالطبع مشكلات كثيرة وقلة التمويل، لكنه رغم ذلك يثير الإعجاب فيما يخص بلداً فقيراً لديه مشكلات وأولويات أخرى. تقف خلف نظام الحماية ذاك حركة محافظة أهلية نشيطة مع العديد من المنظمات غير الأهلية المكونة من الدومينيكانيين أنفسهم، بدلاً من فرضها على البلد من قبل مستشارين أجانب.

ظهرت كل تلك الاختلافات في غطاء الغابات، والاقتصاد، ونظام حماية الطبيعة على الرغم من حقيقة أن كلا البلدين يشتركان في الجزيرة نفسها. ويشتركان أيضاً في التاريخ نفسه من الاستعمار الأوروبي والاحتلال الأمريكي، والديانة النصرانية السائدة التي تتعايش مع الفودو (سحر فيه استحضار للأرواح) والأكثر وضوحاً في هاييتي، ونسب أفرو-أوروبي مختلط (مع نسبة أعلى من السلف الإفريقي في هاييتي). كانت الدولتان أثناء ثلاث حقب من تاريخهما متحدتين بمستعمرة أو بلد واحد.

تصبح الاختلافات الموجودة على الرغم من أوجه التشابه تلك صارخة أكثر عندما يعرف المرء أن هاييتي كانت أكثر ثراءً وقوة من جارتها. غزت في القرن التاسع عشر جمهورية الدومينيكان وضمتها 22 سنة. لماذا آلت الأمور إلى نتيجتين مختلفتين جداً في البلدين؟، ولماذا شهدت هاييتي وليس جمهورية الدومينيكان تراجعاً شديداً؟ هناك بعض الاختلافات البيئية بين شطري الجزيرة التي أسهمت إلى حد ما في النتيجتين، لكن ذلك جزء صغير من التفسير. يتعلق معظم التفسير بدلاً من ذلك بالاختلافات بين الشعبين في تاريخهما، ومواقفهما، وهويتهما الخاصة، ومؤسساتهما، إضافة إلى تلك

الموجودة بين القادة الحاليين للحكومتين. فيما يخص أي شخص يميل لعد التاريخ البيئي «حتمية بيئية»، يثبت التاريخان المتناقضان لجمهورية الدومينيكان وهاييتي أن ذلك ليس صحيحاً. نعم، تقيد المشكلات البيئية المجتمعات البشرية، لكن ردود أفعال المجتمعات هي التي تحدث الفرق؛ وكذلك، أيضاً، أفعال قادتها سواء كانت للأفضل أم الأسوأ.

سيبدأ هذا الفصل بعرض المسارين المختلفين للتاريخين السياسي والاقتصادي اللذين أسهما في ظهور الاختلافات الحالية بين جمهورية الدومينيكان وهاييتي، والأسباب الكامنة وراء هذين المسارين المختلفين. ثم سأناقش تطور سياسات البيئة في جمهورية الدومينيكان، التي كانت مزيجاً من مبادرات من الأسفل إلى الأعلى (من القاعدة إلى القمة) وبالعكس. سننهي الفصل بإلقاء نظرة على الحالة الراهنة للمشكلات البيئية، ومستقبل وآمال كل شطر من الجزيرة، وتأثيرهما بعضهما في بعض وفي العالم.

عندما وصل كريستوفر كولومبس إلى هيسبانيولا أثناء رحلته الأولى عبر الأطلسي سنة 1492 ميلادية، كانت الجزيرة مأهولة آنذاك بالأمريكيين الأصليين منذ 5000 سنة. وكان السكان وقت وصول كولومبس مجموعة من هنود الآرواك الذين يُدعون تينو ويمتهنون الزراعة، منظمين ضمن خمسة زعامات، ويصل عددهم إلى نحو نصف مليون شخص (تتراوح التقديرات بين 100.000 و2.000.000). وجدهم كولومبس بادئ الأمر مسالمين وودودين، حتى بدأ ومن معه من الإسبان يسيئون معاملتهم.

لسوء حظ التينو، كان لديهم ذهب يطمع به الإسبان لكنهم لم يرغبوا بالعمل في استخراجه بأنفسهم. لهذا قسّم الفاتحون الجزيرة وسكانها الهنود بين الأفراد الإسبان، الذين جعلوا الهنود يعملون بصفة عبيد، نقلوا إليهم الأمراض اليورو ـ آسيوية، وقتلوهم. بحلول سنة 1519، بعد 27 سنة من وصول كولومبس، انخفض عدد السكان الذي كان أصلاً نصف مليون إلى نحو 11.000، توفي معظمهم تلك السنة من الجدري لينخفض العدد إلى 3000 فقط، وتوفي هؤلاء الناجون تدريجياً ليندثروا تماماً أثناء العقود القليلة الآتية. أرغم ذلك الإسبان على البحث في أماكن أخرى عن عمال عبيد.

اكتشف الإسبان سنة 1520 أن هيسبانيولا مناسبة لزراعة السكر، وبدؤوا استيراد العبيد من إفريقية. حولت مزارع السكر الجزيرة إلى مستعمرة ثرية معظم القرن

السادس عشر. على أي حال، تحول اهتمام الإسبان عن هيسبانيولا لأسباب متعددة، من بينها اكتشافهم لمجتمعات هندية أكثر ثراء وسكاناً على البر الرئيس الأمريكي، خاصة في المكسيك، والبيرو، وبوليفية، مما قدم سكاناً هنوداً أكثر لاستغلالهم، ومجتمعات أكثر تطوراً سياسياً للاستيلاء عليها، ومناجم فضة غنية في بوليفية. لهذا حول الإسبان اهتمامهم إلى أماكن أخرى وخصصوا موارد قليلة لهيسبانيولا، لأن شراء ونقل العبيد من إفريقية كان مكلفاً ويمكن الحصول على الأمريكيين الأصليين بكلفة التغلب عليهم فقط. إضافة إلى ذلك، اجتاح القراصنة الإنكليز، والفرنسيون، والهولنديون الكاريبي وهاجموا المستعمرات الإسبانية على هيسبانيولا وأماكن أخرى. شهدت إسبانية نفسها تراجعاً سياسياً واقتصادياً بشكل تدريجي، وكان ذلك لمصلحة الإنكليز، والفرنسيين، والهولنديين.

إلى جانب القراصنة الفرنسيين هؤلاء، بنى التجار والمغامرون الفرنسيون مستعمرة على الطرف الغربي من هيسبانيولا، بعيداً عن الطرف الشرقي حيث كان الإسبان يتمركزون. استثمرت فرنسة، الأكثر ثراءً وقوة سياسية من إسبانية آنذاك، الكثير لاستيراد العبيد وتطوير المزارع في الجزء الغربي من الجزيرة إلى حدٍ لم يستطع الإسبان مجاراتها فيه، وبدأ تاريخا الشطرين من الجزيرة يختلفان. أثناء القرن السادس عشر، كان في المستعمرة الإسبانية القليل من السكان، وبعض العبيد، واقتصاد صغير يعتمد على تربية الماشية وبيع جلودها، فيما كانت المستعمرة الفرنسية تضم عدداً أكبر من السكان، والمزيد من العبيد (700.000 سنة 1785، مقارنة بـ300.000 فقط في الجزء الإسباني)، ونسبة أقل كثيراً من السكان الأحرار (10% فقط مقارنة بـ85%)، واقتصاداً يعتمد على مزارع السكر. أصبحت سان دومينغو الفرنسية، كما تمت تسميتها، أغنى مستعمرة أوروبية في العالم الجديد وأسهمت بتقديم ربع الثروة الفرنسية.

في سنة 1795، تنازلت إسبانية أخيراً عن الطرف الشرقي الذي لم يعد مفيداً آنذاك إلى فرنسة، وأصبحت هيسبانيولا موحدة مدة وجيزة تحت الحكم الفرنسي. بعد اندلاع ثورتي عبيد في سان دومينغو الفرنسية سنة 1791 وسنة 1801، أرسلت فرنسة جيشاً تعرض للهزيمة من قبل جيش العبيد. في سنة 1804، بعد أن باعت ممتلكاتها في أمريكة

الشمالية إلى الولايات المتحدة لتصبح ولاية لويزيانا، تخلت فرنسة عن هيسبانيولا وهجرتها. لم يكن مفاجئاً أن عبيد هيسبانيولا السابقين، الذين أعادوا تسمية وطنهم هاييتي (اسم الجزيرة الأصلي وفقاً لهنود التينو)، قتلوا الكثير من سكان هاييتي البيض، ودمّروا المزارع وبنيتهم التحتية من أجل منع عودة نظام عبيد المزارع مجدداً، وقسموا المزارع إلى ممتلكات عائلية صغيرة. على الرغم من أن ذلك كان ما أراده العبيد السابقون لأنفسهم بوصفهم أفراداً، إلا أنه كان كارثياً على إنتاجية هاييتي الزراعية، وصادراتها، واقتصادها، عندما لم يتلق المزارعون مساعدة كافية من الحكومات الهاييتية اللاحقة في جهودهم لتطوير محاصيل تدر عليهم أرباحاً عند بيعها. فقدت هاييتي أيضاً موارد بشرية بقتل الكثير من سكانها البيض وهجرة من تبقى منهم.

مع ذلك، في الوقت الذي حققت فيه هاييتي الاستقلال سنة 1804، كانت الشطر الأغنى، والأقوى والأكثر سكاناً في الجزيرة. غزا الهاييتيون سنة 1805 مرتين الشطر الشرقي (الإسباني سابقاً) من الجزيرة، المعروف آنذاك بسانتو دومينغو. بعد أربع سنوات، وبناءً على طلبهم، استعاد المستوطنون الإسبان مكانتهم بصفة مستعمرة تابعة لإسبانية، التي حكمت على أي حال سانتو دومينغو بشكل غير ملائم ودون إيلاء اهتمام كبير بها مما دفع المستوطنين لإعلان الاستقلال سنة 1821. ضم الهاييتيون ذلك الشطر مباشرة، وبقوا فيه حتى تم طردهم سنة 1844؛ واستمر الهاييتيون في شن غزوات للاستيلاء على الشطر الغربي حتى خمسينيات القرن السابع عشر.

إذاً كانت هاييتي سنة 1850 تسيطر على مساحة أقل من جارتها لكن عدد سكانها أكبر، واقتصادها زراعي مستدام مع القليل من الصادرات، وشعب يتألف في أغلبيته من السود المنحدرين من الأفارقة وأقلية من الخلاسيين (عرق مختلط). على الرغم من أن نخبة الخلاسيين كانت تتكلم الفرنسية وتعد نفسها قريبة من فرنسة، إلا أن تجربة هاييتي وخوفها من العبودية قادا إلى اعتماد دستور يحظر على الأجانب امتلاك الأرض أو السيطرة على وسائل الإنتاج عبر الاستثمارات. كانت الأغلبية العظمى من الهاييتيين تتكلم لغة خاصة بها تطورت هناك من الفرنسية، وتدعى كريول. وكانت مساحة الدومينيكان في الشرق أكبر لكن عدد سكانها أقل، واقتصادها يعتمد على تربية

الماشية، رحّبت بالمهاجرين ومنحتهم جنسيتها، وكانت تتكلم الإسبانية. أثناء القرن التاسع عشر، كانت هناك مجموعات صغيرة العدد لكنها مؤثرة اقتصاديا في جمهورية الدومينيكان ومنها اليهود، وأهل جزيرة الكناري، اللبنانيون، والفلسطينيون، والكوبيون، وأهل بورتوريكو، وألمان، وإيطاليون، وانضم إليهم لاحقاً يهود نمساويون، ويابانيون، والمزيد من الإسبان بعد سنة 1930. كانت السمة السياسية التي تشابهت فيها هاييتي وجمهورية الدومينيكان هي عدم الاستقرار السياسي. تتابعت الانقلابات بشكل متكرر، وانتقلت السلطة بين زعماء محليين لديهم جيوشهم الخاصة. من بين 22 رئيساً لهاييتي من سنة 1843 إلى سنة 1915، اغتيل 21 منهم أو تم إرغامهم على التخلي عن السلطة؛ فيما تعاقب 50 رئيساً على جمهورية الدومينيكان بين سنتي 1844 و1930، منهم 30 ثائراً. كان الرؤساء في كلا شطري الجزيرة يحكمون من أجل إثراء أنفسهم وأتباعهم.

نظرت القوى الخارجية إلى هاييتي وجمهورية الدومينيكان وعاملتهما بشكل مختلف. فيما يتعلق بالأوربيين، كانت الصورة المفرطة في التبسيط أن جمهورية الدومينيكان ونظراً لأنها تتكلم الإسبانية مجتمع أوروبي جزئياً يقبل المهاجرين والتجارة الأوربية؛ فيما كانت هاييتي التي تتكلم لغة كرويل مجتمعاً إفريقياً يتألف من عبيد سابقين ومعادٍ للأجانب. بمساعدة الاستثمارات من أوروبة ولاحقاً من الولايات المتحدة، بدأت جمهورية الدومينيكان تطور اقتصاد سوق تصدير، فيما كانت هاييتي بعيدة عن ذلك. كان اقتصاد الدومينيكان يرتكز على الكاكاو، والتبغ، والبن، ومزارع السكر (ابتداءً من سبعينيات القرن السابع عشر)؛ الذي (للمفارقة) ميّز هاييتي سابقاً وليس جمهورية الدومينيكان. لكن كلا شطري الجزيرة بقي يمتاز بعدم الاستقرار السياسي. اقترض أحد رؤساء الدومينيكان مع نهاية القرن التاسع عشر أموالاً كثيرة من الأوروبيين وأخفق في تسديدها مما جعل فرنسة، وإيطالية، وبلجيكة، وألمانية ترسل سفناً حربية وتهدد باحتلال البلاد من أجل الحصول على ديونها. لإبعاد خطر الاحتلال الأوروبي، تولت الولايات المتحدة إدارة خدمة الجمارك في الدومينيكان، وهي المصدر الوحيد للعائدات الحكومية، وخصصت نصف الواردات لتسديد تلك الديون الأجنبية. أثناء الحرب العالمية الأولى، احتلت الولايات المتحدة، نتيجة قلقها على قناة بنما من عدم الاستقرار السياسي في الكاريبي، كلا شطري الجزيرة واستمر الأمر على تلك الحال من سنة 1915 إلى سنة

1934 في هاييتي ومن سنة 1916 إلى سنة 1924 في جمهورية الدومينيكان. بعد ذلك، سرعان ما عاد كلا الشطرين إلى حالة عدم الاستقرار السياسي والنزاع بين الزعماء المتنافسين على الرئاسة.

انتهى عدم الاستقرار في كلا الشطرين، وكان ذلك في جمهورية الدومينيكان قبل وقت طويل من هاييتي، على يدي أشد طاغيتين قسوة في تاريخ أمريكة اللاتينية الطويل من الطغاة الأشرار. كان رافائيل تروجيلو قائد الشرطة الوطنية في الدومينيكان، ثم تولى قيادة الجيش الذي أنشأته ودربته حكومة الولايات المتحدة العسكرية. بعد أن استفاد من ذلك المنصب لضمان انتخابه رئيساً سنة 1930 وتحوله إلى طاغية، بقي في السلطة نتيجة عمله الدؤوب، وإدارته المتفوقة، وتنصيب نفسه قاضياً للشعب، وبراعته السياسية، وقسوته المطلقة – وظهوره بصفة شخص يعمل لتحقيق مصالح مجتمع الدومينيكان الواسعة. عذّب وقتل خصومه المحتملين وبنى دولة بوليسية.

في الوقت نفسه، في مسعى لتحديث جمهورية الدومينيكان، طور تروجيلو الاقتصاد، والبنى التحتية، والصناعات؛ وأدار البلاد وكأنها شركة خاصة في معظم الأحيان. استطاع وعائلته أخيراً امتلاك أو السيطرة على معظم اقتصاد البلاد. كان تروجيلو يحتكر بشكل خاص، سواء مباشرة أو عبر أقرباء أو حلفاء يشكلون واجهة له، تصدير لحم الأبقار، والإسمنت، والشوكولا، ولفائف التبغ، والبن، والتأمين، والحليب، والأرز، والملح، والمسالخ، والتبغ، والأخشاب. كما امتلك أو سيطر على معظم عمليات قطع الأشجار وإنتاج السكر، وكان يمتلك طائرات، ومصارف، وفنادق، ومعظم الأراضي، وخطوط الشحن البحري. ويأخذ حصة من عائدات الغانيات و10% من رواتب كل الموظفين الحكوميين. حاول تخليد اسمه: تم تحويل اسم العاصمة من سانتو دومينغو إلى سيداد تروجيلو (مدينة تروجيلو)، واسم أعلى جبال البلاد من بيكو دوريت إلى بيكو تروجيلو؛ تضمن نظام البلاد التعليمي تقديم الشكر لتروجيلو، وتم وضع لافتات شكر عند كل صنبور للمياه العامة تقول «تروجيلو يمنح الماء». لتقليل إمكانية حدوث ثورة أو غزو ناجح، أنفقت حكومة تروجيلو نصف ميزانيتها على جيش، وبحرية، وقوة جوية كبيرة، كانت الأضخم في منطقة الكاريبي وأكبر حتى من القوات المسلحة المكسيكية.

تضافرت في خمسينيات القرن العشرين، على أي حال، مجموعة من التطورات التي جعلت تروجيلو يبدأ خسارة سلطته السابقة التي حافظ عليها عبر مزيج من أساليب الترويع، والنمو الاقتصادي، وتوزيع الأراضي على الفلاحين. تراجع الاقتصاد نتيجة الإفراط في الإنفاق الحكومي للاحتفال بالذكرى الـ25 لتولي تروجيلو السلطة، وشراء معامل السكر ومحطات توليد الكهرباء الخاصة، وتراجع الأسعار العالمية للبن وصادرات الدومينيكان الأخرى، والقرار باستثمار مبالغ ضخمة في مزارع السكر الحكومية التي لم تكن ناجحة اقتصادياً. استجابت الحكومة لغزو فاشل دعمته كوبا وقام به المنفيون الدومينيكان سنة 1959، وإلى بيانات إذاعية كوبية تحض على الثورة، بزيادة عمليات الاعتقال، والاغتيال، والتعذيب. في 30 أيار 1961، بينما كان تروجيلو ينتقل بسيارة يقودها سائق دون مرافقة في وقت متأخر من الليل لزيارة خليلته، تعرض لكمين ولقي حتفه في معركة ملاحقة مثيرة قام بها دومينيكانيون، بدعم واضح من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

أثناء معظم حقبة تروجيلو في جمهورية الدومينيكان، استمرت حالة عدم استقرار تعاقب الرؤساء في هاييتي حتى سنة 1957 عندما خضعت لحكم طاغيتها الشرير فرانسوا «دوك الأب» دوفاليه. مع أنه كان طبيباً ومثقفاً أكثر من تروجيلو، إلا أنه بوصفه سياسياً كان يضاهيه ذكاءً وقسوة، ونجح في ترويع شعبه بالاعتماد على الشرطة السرية، وانتهى به الأمر بقتل أفراد من شعبه أكثر مما فعل تروجيلو في الدومينيكان. كان دوك الأب دوفاليه يختلف عن تروجيلو بافتقاره للاهتمام بتحديث بلده أو تطوير اقتصاد صناعي سواء لبلده أو لنفسه. مات بشكل طبيعي سنة 1971، ليخلفه ابنه جان-كلود «دوك الابن» دوفاليه، الذي حكم البلاد حتى نفيه منها سنة 1986.

منذ نهاية ديكتاتورية دوفاليه، عادت هاييتي إلى حالة عدم الاستقرار السياسي السابقة، واستمر اقتصادها الضعيف أصلاً بالانكماش. ما تزال تصدر البن، لكن الكميات بقيت ثابتة فيما استمر عدد السكان بالنمو. مؤشر التطور البشري فيها، الذي يرتكز على مزيج من مدة حياة الإنسان والتعليم ومستوى العيش، هو الأدنى في العالم خارج إفريقية. بعد اغتيال تروجيلو، عانت جمهورية الدومينيكان من عدم الاستقرار

السياسي أيضاً حتى سنة 1966، وشهدت حرباً أهلية سنة 1965 استدعت تدخل مارينز (سلاح البحرية) الولايات المتحدة مجدداً وبداية هجرة دومينيكانيين واسعة النطاق إلى أمريكة. انتهت مدة عدم الاستقرار السياسي تلك بانتخاب جواكين بالاغور، رئيس سابق في عهد تروجيلو، لمنصب الرئاسة سنة 1966، بمساعدة من ضباط جيش تروجيلو سابقين شنّوا حملة إرهابية ضد الحزب المعارض. استمر بالاغور، الشخصية المميزة التي سنتكلم عليها ببعض التفصيل فيما بعد، في الهيمنة على السياسات في الدومينيكان طوال 34 سنة بعد ذلك، وحكم بوصفه رئيساً من سنة 1966 إلى سنة 1978 ومجدداً من سنة 1986 إلى سنة 1996، وكان نفوذه كبيراً جداً حتى عندما كان خارج السلطة بين سنتي 1978 و1986. جاء آخر تدخل حاسم له في سياسات الدومينيكان، تمثّل بإنقاذه لنظام المحميات الطبيعية في البلاد، سنة 2000 وعمره آنذاك 94 سنة، وكان ضريراً، ومريضاً؛ وقد توفي بعد ذلك بسنتين.

أثناء تلك الأعوام اللاحقة لحكم تروجيلو من سنة 1961 حتى الوقت الراهن، استمرت جمهورية الدومينيكان في التحول إلى دولة صناعية حديثة. اعتمد اقتصادها بعض الوقت على تصدير السكر، الذي كان حينها يفوق في الأهمية صناعة التعدين، الصادرات الصناعية للمناطق التجارية الحرة، والصادرات الزراعية غير السكر، كما هو مذكور سابقاً في هذا الفصل. كان مهماً أيضاً لاقتصادي كل من جمهورية الدومينيكان وهاييتي تصدير العمالة. يعيش الآن أكثر من مليون هاييتي ودومينيكاني في ما وراء البحار، خاصة في الولايات المتحدة، ويرسلون إلى وطنهم أموالاً تشكل قسماً مهماً من اقتصادي البلدين. ما تزال جمهورية الدومينيكان تعد بلداً فقيراً (دخل الفرد فيها لا يتعدى 2200 دولار في السنة)، لكنها تتمتع بالعديد من مميزات النمو الاقتصادي التي كانت واضحة أثناء زيارتي لها، بما في ذلك ازدهار العمران واكتظاظ حركة السير في المدن.

بعد تلك الخلفية التاريخية، دعونا نعود الآن إلى واحدة من تلك الاختلافات المثيرة التي بدأنا بها هذا الفصل: لماذا أفضى التاريخ السياسي، والاقتصادي والبيئي لهذين البلدين اللذين يشتركان في الجزيرة نفسها إلى نتيجتين مختلفتين؟

يتضمن جزء من الإجابة الاختلافات البيئية. تأتي أمطار هيسبانيولا أساساً من الشرق. لهذا يحصل الجزء الذي تقوم عليه الدومينيكان (الشرقي) من الجزيرة على أمطار أكثر ومن ثم تتمتع بنسبة أعلى لنمو النباتات. جبال هيسبانيولا العالية (يزيد ارتفاعها على 10.000 قدم) على جانب الدومينيكان، وتتدفق الأنهار من تلك الجبال العالية شرقاً نحو الدومينيكان. يوجد على طرف الدومينيكان وديان، وسهول ونجود واسعة، وتربتها أكثر سماكة؛ ويعد وادي سيباو في الشمال أحد أغنى البقاع الزراعية في العالم. على النقيض من ذلك، الجزء الذي تقوم عليه هاييتي أكثر جفافاً بسبب حاجز الجبال العالية التي تحجب الأمطار عن الشرق. مقارنة بجمهورية الدومينيكان، نسبة أعلى من مساحة هاييتي جبلية، ومساحة الأرض المنبسطة الصالحة للزراعة المكثّفة أصغر كثيراً، التضاريس المكونة من الحجارة الكلسية أوسع، والتربة أقل سماكة وخصوبة وقدرتها على التجدد أقل. لاحظ التناقض: كانت ميزات الطرف الهاييتي من الجزيرة أقل من الناحية البيئية لكن ظهر فيه اقتصاد زراعي غني قبل ظهوره في الطرف الذي تقوم عليه الدومينيكان. تفسير هذا التناقض هو أن ظهور الثروة الزراعية في هاييتي جاء على حساب رأسمالها البيئي من الغابات والتربة. العبرة – في الواقع، ربما كان ذلك الحساب المصرفي الذي يبدو مثيراً للإعجاب يخفي توازناً سلبياً للتدفق النقدي – هي الموضوع الذي سنعود إليه في الفصل الأخير.

مع أن تلك الاختلافات البيئية أسهمت فعلاً في رسم المسارين الاقتصاديين المختلفين لهذين البلدين، إلا أن جزءاً كبيراً من التفسير يتضمن الاختلافات السياسية والاجتماعية، التي تسبب العديد منها في تأخر الاقتصاد الهاييتي مقارنة باقتصاد الدومينيكان. بناءً على ذلك، كان مسارا الاقتصادين المختلفين محددين سلفاً: ترافقت عوامل كثيرة منفصلة في دفع النتيجة بالاتجاه نفسه.

إحدى تلك الاختلافات الاجتماعية والسياسية هي أن هاييتي كانت مستعمرة لفرنسة الثرية وأصبحت المستعمرة الأثمن في إمبراطورية فرنسة ما وراء البحار، فيما كانت جمهورية الدومينيكان مستعمرة من قبل إسبانية، التي أهملت بحلول القرن الرابع عشر

هيسبانيولا وشهدت هي نفسها تراجعاً اقتصادياً وسياسياً. لهذا استطاعت فرنسة - واختارت- أن تستثمر في تطوير زراعة مكثّفة تعتمد على العبيد في هاييتي، وهو ما لم تستطعه إسبانية -أو تختاره- فيما يخص الجزء الذي تسيطر عليه من الجزيرة. جاءت فرنسة بعبيد إلى مستعمرتها أكثر كثيراً مما فعلته إسبانية. نتيجة لذلك، أصبح عدد سكان هاييتي يفوق سبعة أضعاف عدد سكان جارتها أثناء الحقبة الاستعمارية، وما يزال عدد السكان فيها أكبر حتى اليوم ويبلغ 10.000.000 نسمة مقابل 8.800.000 في الدومينيكان. لكن مساحة هاييتي أكثر قليلاً من نصف مساحة جمهورية الدومينيكان، لهذا تبلغ الكثافة السكانية في هاييتي مع عدد سكانها الأكبر ومساحتها الأصغر أكثر من ضعف الكثافة السكانية في الجمهورية. كان اقتران تلك الكثافة السكانية العالية بالنسبة المتدنية لهطل الأمطار العامل الرئيس خلف السرعة الأكبر للتصحر وخسارة خصوبة التربة على جانب هاييتي. إضافة إلى ذلك، عادت كل تلك السفن الفرنسية، التي كانت قد نقلت العبيد إلى هاييتي، إلى أوروبة محملة بشحنات من الأخشاب الهاييتية، لهذا أصبحت سهول وسفوح جبال هاييتي خالية من الأشجار مع بداية القرن التاسع عشر.

عامل اجتماعي وسياسي آخر هو أن جمهورية الدومينيكان، بسكانها الذين يتكلمون الإسبانية وينحدرون أساساً من الأوروبيين، كانت أكثر تلقياً وجذباً للمهاجرين والمستثمرين الأوروبيين مما كانت عليه هاييتي التي يتكلم سكانها لغة كرويل وينحدر معظمهم من عبيد سود سابقين. تعرضت الهجرة والاستثمار الأوروبيان للإهمال والتقييد بموجب الدستور في هاييتي بعد سنة 1804، لكنهما أصبحتا مهمتين أخيراً في جمهورية الدومينيكان. يضم هؤلاء المهاجرون إلى الدومينيكان العديد من رجال الأعمال والمهنيين الماهرين من الطبقة الوسطى الذين أسهموا في تطوير الاقتصاد. كان شعب جمهورية الدومينيكان قد اختار استرداد مكانة بلاده بوصفها مستعمرة أوروبية في المدة 1812 إلى 1821، واختار رئيسه أن يجعل بلاده تحت الوصاية الإسبانية من سنة 1861 إلى سنة 1865.

ما يزال هناك فرق اجتماعي آخر أسهم في اختلاف الاقتصادين هو أن معظم الهاييتيين، نتيجة الإرث التاريخي للعبودية في البلاد وثورات العبيد، كانوا يمتلكون أراضيهم، ويستعملونها لإطعام أنفسهم، ولا يتلقون مساعدة من حكومتهم لتطوير إنتاجية

المحاصيل وبيعها إلى دول أوروبية ما وراء البحار؛ فيما قامت جمهورية الدومينيكان أخيراً بتطوير اقتصاد تصدير وتجارة ما وراء البحار. كانت النخبة في هاييتي ترتبط بقوة مع فرنسة بدلاً من الارتباط بأرضها، لم تمتلك الأرض أو تطور زراعة تجارية، وسعت أساساً للحصول على الثروة من الفلاحين.

هناك سبب معاصر للاختلاف ويتعلق باختلاف طموحات الطاغيتين: سعى تروجيلو لتطوير اقتصاد صناعي وبناء دولة حديثة (لمصلحته الخاصة)، لكن دوفاليه لم يفعل ذلك. ربما ينظر المرء إلى ذلك على أنه مجرد فرق شخصي بين الطاغيتين، لكنه ربما يعكس أيضاً اختلافات بين مجتمعيهما.

أخيراً، كانت مشكلات هاييتي في التصحر والفقر مقارنة بتلك التي تعاني منها جمهورية الدومينيكان قد أصبحت أكثر تعقيداً أثناء السنوات الـ40 الماضية. نظراً لاستعادة جمهورية الدومينيكان معظم غطاء الغابات وشروعها في التصنيع، خطّط نظام تروجيلو بادئ الأمر، وبنت أنظمة بالاغور والرؤساء اللاحقون، سدوداً لتوليد الطاقة الكهرومائية. وأطلق بالاغور برنامجاً ضخماً للتوقف عن استعمال أشجار الغابات وقوداً واستيراد البروبين (غاز الطهو) والغاز الطبيعي المسال. لكن فقر هاييتي أرغم شعبها على الاعتماد على الفحم المصنّع من أشجار الغابات واستعماله وقوداً، ومن ثم التسريع من تصحر آخر غاباتها الباقية.

كانت هناك أسباب عديدة لظهور التصحر ومشكلات بيئية أخرى باكراً، تطورها مدة طويلة، وتفاقهما في هاييتي أكثر من جمهورية الدومينيكان. تتضمن الأسباب أربعة من العوامل الخمسة التي تشكل إطار عمل هذا الكتاب: الاختلافات بين تأثيرات البشر البيئية، والتنوع في السياسات الودّية والسياسات العدائية لبلاد أخرى، وفي استجابة المجتمعات وقادتها لتلك المشكلات. تقدم الحالات التي نستعرضها في هذا الكتاب، وتتضمن التناقض بين هاييتي وجمهورية الدومينيكان الذي نناقشه في هذا الفصل، والتناقض بين مصيري الاسكندنافيين والأسكيمو في غرينلاند الذي ناقشته في الفصل 8، أوضح الأمثلة عن أن مصير المجتمع يكمن بين يديه ويعتمد أساساً على خياراته.

ماذا عن مشكلات جمهورية الدومينيكان البيئية؟، وماذا عن الإجراءات المضادة التي تبنتها؟ بالاستفادة من المصطلحات التي أدخلتها في الفصل 9، بدأت إجراءات الدومينيكان لحماية البيئة من الأسفل إلى الأعلى، وتحولت إلى سيطرة من الأعلى إلى الأسفل بعد سنة 1930، وهي الآن مزيج من الاثنتين. زاد استغلال الأشجار الثمينة في الجمهورية في ستينيات وسبعينيات القرن السابع عشر، ونتج عن ذلك حينها استنفاد أو انقراض أنواع قيّمة من الأشجار. ازدادت معدلات التصحر في أواخر القرن التاسع عشر بسبب قطع الغابات لإقامة مزارع سكر مكانها وارتفاع الطلب على الأخشاب لبناء السكك الحديدية التي تصل بين المناطق الحضرية والبدائية. نتعرف بعد وقت قصير من سنة 1900 على أول ذكر للضرر الذي لحق بالغابات في المناطق التي تنخفض فيها نسبة هطل الأمطار نتيجة قطع الأشجار لاستعمالها حطباً، وعن تلويث الجداول الناجم عن النشاطات الزراعية على طول ضفافها. تم إقرار أول نظام لحظر قطع الأشجار وتلويث الجداول سنة 1901.

تم إطلاق برنامج لحماية البيئة من الأسفل إلى الأعلى بطريقة جدّية بين سنتي 1919 و1930 في المنطقة حول سانتياغو، ثاني أكبر مدينة في الجمهورية ومركز منطقتها الزراعية الأغنى والأكثر استغلالاً. أصيب المحامي خوان بوتيستا بيريز رانسير والطبيب والباحث ميغيل كانيلا يا لازارو بالصدمة من عملية قطع الأشجار والشبكة الطرقية المرتبطة بها التي أدّت إلى نشوء المزارع والإضرار بالمنابع المائية، وضغطا على غرفة تجارة سانتياغو لشراء أرض وتحويلها إلى محمية للغابات، وسعيا أيضاً لجمع التمويل الضروري بطرح أسهم المحمية للاكتتاب العام. تم تحقيق النجاح سنة 1927، عندما قدم وزير زراعة الجمهورية تمويلاً حكومياً إضافياً لشراء أول محمية طبيعية، فيدادو ديل ياك. نهر ياك هو الأطول في البلاد، وفيدادو قطعة من الأرض، الدخول إليها محظور أو مقيد.

بعد سنة 1930، غيّر الطاغية تروجيلو من طريقة إدارة البيئة لتصبح من الأعلى إلى الأسفل. وسّع نظامه منطقة فيدادو ديل ياك، وأقام مناطق فيدادو أخرى، أنشأ سنة 1934 أول منتزه وطني، وأسس قوة شرطة لحماية الغابات، وقمع إشعال النيران في

الغابات لجعل الأرض صالحة للزراعة، وحظر قطع أشجار الصنوبر دون إذنه في المنطقة حول كونستانزا في وسط كورديلرا. طبّق تروجيلو تلك الإجراءات بهدف حماية البيئة كما ادّعى، لكن ربما كان مدفوعاً باعتبارات اقتصادية، بما فيها مصلحته الاقتصادية الخاصة. عين نظامه سنة 1937 عالم بيئة شهير من بورتوريكو، د. كارلوس تشادرون، لإجراء مسح لموارد جمهورية الدومينيكان الطبيعية (زراعتها، وثروتها المعدنية، وحالة غاباتها). قام تشادرون بشكل خاص بحساب ثمن ألواح الأخشاب التجارية التي يمكن الحصول عليها من غابات صنوبر الجمهورية، التي كانت الأكبر في الكاريبي ووصلت قيمتها إلى نحو 40.000.000 دولار، وهو مبلغ ضخم في تلك الأيام. بناءً على ذلك التقرير، انغمس تورجيلو بنفسه في قطع أشجار الصنوبر، وقام بامتلاك مساحات واسعة من غابة الصنوبر وأصبح شريكاً رئيساً في معامل نشر الخشب في البلاد. قام عمال تروجيلو، أثناء عمليات القطع، بتبني إجراء يبدو مناسباً من الناحية البيئية بترك بعض الأشجار الكبيرة في مكانها لتصبح مصدراً للبذور اللازمة لنمو الغابة بشكل طبيعي مجدداً، وما زال ممكناً معرفة تلك الأشجار القديمة الكبيرة اليوم في غابة نمت من جديد. تضمنت الإجراءات البيئية في عهد تروجيلو في خمسينيات القرن العشرين اعتماد دراسة سويدية حول إمكانيات الجمهورية في بناء السدود لتوليد الطاقة الكهرومائية، وتخطيط مثل تلك السدود، والدعوة لعقد أول مؤتمر بيئي في البلاد سنة 1958، وإنشاء المزيد من المتنزهات الوطنية لحماية منابع المياه على الأقل التي كانت مهمة لتوليد الطاقة الكهرومائية.

في ظل حكمه الديكتاتوري، نفّذ تروجيلو (كالمعتاد، غالباً ما كان أفراد العائلة يعملون يشكلون واجهة له) عمليات قطع الأشجار بنفسه، لكن حكومته الديكتاتورية منعت الآخرين من القيام بذلك وإنشاء مستعمرات غير مرخص لها. بعد وفاة تروجيلو سنة 1961، تداعى ذلك الحظر على الاستغلال واسع النطاق للبيئة في الدومينيكان. ووضع السكان يدهم على الأرض وأشعلوا النيران في الغابات لحرق الأشجار وتحويلها إلى مناطق زراعية، وارتفعت الهجرة واسعة النطاق غير المنظمة من الأرياف إلى المناطق الحضرية، وبدأت أربع عائلات ثرية من منطقة سانتياغو قطع الأشجار بسرعة أكبر مما كانت عليه

الحال في عهد تروجيلو. وبعد سنتين من وفاة تروجيلو، حاول الرئيس المنتخب ديمقراطياً خوان بوش حث قاطعي الأشجار للإبقاء على غابات الصنوبر لتكون بمثابة أماكن لتجميع المياه اللازمة لسدي ياك ونيزاو، لكن هؤلاء انضموا إلى آخرين لخلع بوش. وازدادت معدلات قطع الأشجار حتى إنتخاب جواكين بالاغور رئيساً سنة 1966.

أدرك بالاغور حاجة البلد الملحّة للحفاظ على مصادر المياه التي تغذي الغابات من أجل سد احتياجات الطاقة في الجمهورية عبر توليد الكهرباء من المساقط المائية، وضمان إمدادات مياه كافية للاستعمالات الصناعية والمنزلية. بعد توليه الرئاسة بمدة قصيرة، قام بخطوة جريئة بحظر كل عمليات قطع الأشجار التجارية، وإغلاق كل معامل نشر الأخشاب في البلاد. أثار القرار معارضة قوية من العائلات الثرية القوية، التي نقلت عمليات قطع الأشجار التي تقوم بها بعيداً عن أنظار العامة إلى مناطق داخل الغابات، وتشغيل معامل الأخشاب في الليل. أقدم بالاغور على خطوة أكثر قسوة بنقل مسؤولية حماية الغابات من وزارة الزراعة إلى القوات المسلحة، وإعلان أن قطع الأشجار جريمة ضد أمن الدولة. لإيقاف عمليات القطع، بادرت القوات المسلحة إلى إطلاق برنامج رحلات طيران للمراقبة وعمليات عسكرية، وصل إلى ذروته سنة 1967 في واحدة من الأحداث الفارقة في تاريخ بيئة الدومينيكان، التي تمثّلت في غارة ليلية شنّها الجيش على مخيم سري كبير لقطع الأشجار. لقي اثنا عشر قاطع أشجار حتفهم في الاشتباك المسلح الذي نجم عن ذلك. كانت تلك إشارة تحذير قوية لكل من يعمل في قطع الأشجار. استمرت بعض عمليات قطع الأشجار غير القانونية، لكنها واجهت غارات أخرى ولقي بعض العمال حتفهم نتيجة لها، وانخفضت بشكل كبير أثناء رئاسة بالاغور الأولى (1966 إلى 1978، تضمنت انتخابه ثلاث مرات متتابعة).

كانت تلك واحدة فقط من مجموعة إجراءات بيئية اتخذها بالاغور، فيما كانت هناك إجراءات أخرى. أثناء السنوات الثماني التي كان فيها بالاغور خارج السلطة من سنة 1978 إلى سنة 1986، أعاد بعض الرؤساء فتح الباب أمام قطع الأشجار ونشر الأخشاب، وسمحوا بزيادة إنتاج الفحم من الغابات. في اليوم الأول لعودته إلى الرئاسة

سنة 1986، بدأ بالاغور إصدار أوامر تنفيذية لإغلاق مخيمات قطع الأشجار ومعامل نشر الأخشاب مجدداً، ونشر في اليوم الآتي المروحيات العسكرية لمراقبة عمليات قطع الأشجار غير القانونية واقتحام المنتزهات الوطنية. استؤنفت العمليات العسكرية وتم إلقاء القبض على قاطعي الأشجار وإيداعهم السجن، وإلغاء وضع اليد إضافة إلى إزالة منازل وصناعات زراعية يمتلكها أثرياء (بعضهم أصدقاء لبالاغور) من المنتزهات. وقعت أشهر تلك العمليات سنة 1992 في منتزه لوس هيتيزيز الوطني، الذي تم تدمير 90% من غاباته، وطرد الجيش آلاف المتطفلين. في عملية مشابهة بعد سنتين، التي أمر بها بالاغور شخصياً، دفع الجيش الجرافات عبر منازل فخمة بناها دومينيكانيون أثرياء ضمن منتزه خوان ب بيريز الوطني. حظر بالاغور استعمال النيران أسلوباً في الزراعة، وسن قانوناً (ثبت أن تطبيقه صعب) بأن يتم بناء سياج المزارع من أشجار حية بدلاً من ألواح الأخشاب. قام بمجموعتين من الإجراءات لتخفيف الطلب على منتجات أشجار الدومينيكان واستبدال بها شيئاً آخر، تضمنت الأولى فتح السوق لاستيراد الأخشاب من تشيلي، وهندوراس، والولايات المتحدة (ومن ثم ألغى معظم الطلب على أخشاب الدومينيكان في مستودعات البلاد)؛ فيما شملت الثانية خفض إنتاج الفحم التقليدي من الأشجار (لعنة هاييتي) بالتعاقد على استيراد الغاز الطبيعي المسال من فنزويلا، وبناء عدّة منشآت لاستيراد ذلك الغاز، ودعم تكلفة بيع الغاز للعامة لتنافس الفحم، والدعوة لتوزيع مواقد واسطوانات غاز الطهو دون مقابل لتشجيع الناس على التحول عن استعمال الفحم، ووسّع كثيراً نظام المحميات الطبيعية، وأعلن إنشاء أول متنزهين وطنيين ساحليين في البلاد، وألحق منطقتين بحريتين بأراضي الدومينيكان وحظر صيد الحوت الأحدب فيهما، ومنع استغلال الأراضي ضمن 20 ياردة من الأنهار، و60 ياردة من الساحل، ووقّع اتفاقية ريو بشأن البيئة، وحظر الصيد 10 سنوات. وضغط على الصناعات لمعالجة نفاياتها، وأطلق جهوداً للحد من تلوث الهواء لكنها لم تلق نجاحاً كبيراً، وفرض ضريبة كبيرة على شركات التعدين. كانت بين العروض الكثيرة المضرة بالبيئة التي عارضها أو رفضها مشروعات بناء طريق إلى ميناء سانشيز عبر متنزه وطني، وطريق يربط الشمال بالجنوب عبر وسط كورديلرا، ومطار دولي في سانتياغو، وميناء كبير، وسد على نهر

مادريغال، ورفض إصلاح طريق في الهضاب حتى أضحى غير مستعمل تقريباً. أنشأ في سانتو دومينغو حوضاً مائياً، وحديقة نباتية، ومتحفاً للتاريخ الطبيعي وأعاد بناء حديقة الحيوانات الوطنية التي أصبحت جميعها مقاصد رئيسة للزيارة.

كان آخر عمل سياسي لبالاغور بعمر 94 سنة تحالفه مع الرئيس المنتخب آنذاك ميجا لمنع تنفيذ خطة الرئيس فيرناندیز بتخفيف أو إضعاف نظام المحميات الطبيعية. حقق بالاغور وميجا ذلك الهدف بمناورة تشريعية ذكية عدّلا فيها عرض الرئيس فيرناندیز بإجراء أي تعديل على نظام المحميات الطبيعية بإصدار أمر تنفيذي فقط (يكون عرضة لتعديلات مثل تلك التي اقترحها فيرناندیز) إلى الاعتماد على قانون تم إقراره سنة 1996 في رئاسة بالاغور الأخيرة وقبل مناورات فيرناندیز. هكذا، أنهى بالاغور حياته السياسية بإنقاذ نظام المحميات التي خصص لها جُل اهتمامه.

شكلت كل تلك الأعمال التي قام بها بالاغور ذروة حقبة إدارة البيئة من الأعلى إلى الأسفل في جمهورية الدومينيكان. في الحقبة نفسها، استؤنفت أيضاً الجهود من الأسفل إلى الأعلى بعد اختفائها في ظل حكم تروجيلو. أثناء سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، وضع العلماء قوائم تفصيلية بمحتويات المحميات الطبيعية، الساحلية، والبحرية، والبرية. فيما كانت الدومينيكان تتعلم مجدداً أساليب المشاركة المدنية الخاصة بعد عقود من الافتقار إليها في عهد تروجيلو، شهدت ثمانينيات القرن العشرين تأسيس الكثير من المنظمات غير الحكومية، بما فيها عشرات المنظمات البيئية التي ازدادت فعاليتها بمرور الوقت. على العكس مما هي عليه الحال في العديد من الدول النامية، حيث تقع مسؤولية بذل جهود الحفاظ على البيئة أساساً على عاتق فروع لمنظمات بيئية دولية، كان الزخم في جمهورية الدومينيكان قد جاء من منظمات غير حكومية محلية مهتمة بالبيئة. إلى جانب الجامعات وأكاديمية العلوم في الدومينيكان، أصبحت المنظمات غير الحكومية الآن رائدة في حركة البيئة المحلية في الجمهورية.

لماذا أقرّ بالاغور تلك الحزمة العريضة من الإجراءات لصالح البيئة؟ فيما يخص الكثيرين منا، من الصعب علينا التوفيق بين ذلك الالتزام القوي والرؤية البعيدة بمصالح البيئة مع مؤهلاته البغيضة. عمل بالاغور مع الطاغية رافائيل تروجيلو طوال

31 سنة ودافع عن مجازر الأخير ضد الهاييتيين سنة 1937. وانتهى به الأمر ليكون الرئيس الدمية في عهد تروجيلو، لكنه عمل معه في مواقع كان له نفوذ كبير فيها، مثل وزير الخارجية. يصبح أي شخص مستعداً للعمل مع شرير مثل تروجيلو موضع شبهة مباشرة ويفقد بريقه نتيجة ارتباطه به. قام بالاغور أيضاً بقائمته الخاصة به من الأفعال الشريرة بعد وفاة تروجيلو – أفعال لا يمكن إلقاء اللوم بشأنها سوى على بالاغور نفسه. على الرغم من فوزه بالرئاسة باستقامة في انتخابات سنة 1986، إلا أنه كان قد لجأ إلى الخداع، والعنف، والتهديد لضمان انتخابه سنة 1966 وإعادة انتخابه سنوات 1970، 1974، 1990، و1994. أنشأ فصائل خاصة لاغتيال المئات وربما الآلاف من أعضاء المعارضة. أصدر أوامر بتهجير أشخاص فقراء بالقوة من متنزهات وطنية، وأوامر أخرى بإطلاق النار على قاطعي الأشجار. غض الطرف عن الفساد واسع النطاق. كان ينتمي إلى مجموعة من رجال السياسة الأقوياء في أمريكة اللاتينية أو من يدعون كوديلو. من بين العبارات التي تُنسب إليه: «الدستور لا شيء أكثر من مجرد قطعة ورق».

سيناقش الفصلان 14 و15 من هذا الكتاب الأسباب المعقدة دائماً التي تجعل الناس يلتزمون –أو لا يلتزمون– بسياسات بيئية. عندما كنت أزور جمهورية الدومينيكان، كنت مهتماً بشكل خاص بأن أعرف، من أولئك الذين كانوا قد عرفوا بالاغور شخصياً أو عاشوا حقبة ولاياته الرئاسية، الدوافع التي كانت وراء أفعاله. سألت كل دومينيكاني كنت قد قابلته عن رأيه به. حصلت من 20 شخصاً التقيت بهم وقتاً طويلاً على 20 إجابة مختلفة. كان العديد منهم أشخاصاً يمتلكون أقوى الدوافع الشخصية المحتملة ليكرهوا بالاغور: كان قد أدخلهم السجن، أو تعرضوا للسجن والتعذيب من قبل حكومة تروجيلو التي كان أحد أعضائها، أو لديهم أقرباء وأصدقاء تعرضوا للقتل.

ضمن ذلك التنوع في الآراء، كانت هناك على الرغم من ذلك نقاط ذكرها الرواة باستقلالية. وصف معظمهم بالاغور بأنه شخصية معقدة ومحيرة بشكل فريد. أراد السلطة السياسية، وكان يعتمد السياسات التي يؤمن بها دون أن يقوم بأشياء تكلّفه تلك السلطة (لكنه كان غالباً ما يدفع الأمور على نحو خطير إلى حافة خسارة السلطة باعتماد سياسات غير شعبية). كان سياسياً عملياً وبارعاً للغاية ولم يستطع أحد آخر طوال الـ42

سنة الماضية من تاريخ الدومينيكان السياسي الاقتراب من مجاراته، وقد كان يمثّل كلمة «ميكيافيلي» بكل ما تعنيه. حافظ باستمرار على توازن حسّاس بين الجيش، العامة، وجماعات النخبة المتنافسة؛ نجح في إحباط انقلابات عسكرية ضده بتقسيم الجيش إلى مجموعات متنافسة؛ وكان يستطيع نشر الخوف حتى بين ضباط الجيش الذين يستغلون الغابات والمتنزهات الوطنية لدرجة أنه نتيجة لمواجهة شهيرة غير معدة سلفاً تم تسجيلها تلفزيونياً سنة 1994، قيل لي إن عقيداً في الجيش كان قد عارض إجراءات حماية الغابات التي قام بها بالاغور تبوّل في سرواله بعد استدعاء بالاغور له. قال مؤرخ كنت قد التقيته بكلمات بليغة: «كان بالاغور أفعى تغيّر جلدها كلما احتاجت لذلك». غض بالاغور الطرف عن الفساد المستشري أيام حكمه، لكنه لم يكن فاسداً بنفسه أو مهتماً بتكديس ثروة شخصية، بخلاف تروجيلو. بكلماته الخاصة: «يتوقف الفساد عند باب مكتبي».

أخيراً، لخص أحد الدومينيكانيين الذين كانوا قد تعرضوا للسجن والتعذيب الأمر لي: «كان بالاغور شريراً، لكن شريراً ضرورياً في تلك المرحلة من تاريخ الدومينيكان». كان ذلك الشخص يعني بتلك العبارة أنه وقت اغتيال تروجيلو سنة 1961 كان هناك العديد من الدومينيكانيين ما وراء البحار وداخل البلاد الذين يمتلكون طموحات مشروعة، لكن لم يكن لدى أي منهم خبرة بالاغور العملية بالحكم. عبر أفعاله، يُحسب له تثبيت دعائم الطبقة الوسطى، والرأسمالية، والوصول بالبلاد إلى حالتها الراهنة اليوم؛ وأنه أشرف على تطوير اقتصاد الدومينيكان بشكل كبير. تدفع تلك النتائج الكثير من مواطني الدومينيكان إلى التغاضي عن أفعال بالاغور الشريرة.

لدى الإجابة عن سؤالي حول سياسات بالاغور البيئية، وجدت الكثير من الاختلاف في الرأي. أخبرني بعض الدومينيكانيين أنهم كانوا يعتقدون أنها مجرد خدعة، إما للفوز بالأصوات أو تلميع صورته الدولية. اعتبر أحد الأشخاص قيام بالاغور بطرد الفقراء من المتنزهات الوطنية مجرد جزء من خطة أوسع لإخراج الفلاحين من الغابات البعيدة حيث يمكنهم القيام بثورة بدعم من كاسترو؛ إلى حرمان الفقراء من الأراضي العامة بحيث يمكن أخيراً تطويرها إلى منتجعات يمتلكها دومينيكانيون أثرياء، ومستثمرو منتجعات أغنياء ما وراء البحار، أو ضباط في الجيش؛ وتقوية علاقات بالاغور مع الجيش.

على الرغم من غياب دليل حقيقي وراء كل تلك الدوافع موضع الشبهة، إلا أن نطاقاً واسعاً من أعمال بالاغور البيئية، وعدم شعبية بعضها ولا مبالاة العامة ببعضها الآخر، يجعل من الصعب لي عدّ تلك السياسات مجرد خدعة. جعلته بعض أعماله البيئية، ولا سيما استعماله للجيش لإعادة توطين الفقراء، يبدو سيئاً جداً، وكلّفته أصوات ناخبين (وإن كانت لم تؤثر في نتيجة الانتخابات)، وأفقدته دعم أعضاء أقوياء في النخبة والجيش (مع أن مناحي أخرى من سياساته أكسبته دعمهم). في حالة العديد من الإجراءات البيئية التي ذكرتها، لا يمكنني رؤية علاقة محتملة مع مستثمري منتجعات أثرياء، أو أعمال ضد معارضيه، أو تودد إلى الجيش. بدلاً من ذلك، يبدو بالاغور، بوصفه سياسياً يتمتع بخبرة كبيرة، قد تبنى سياسات مناصرة للبيئة طالما استطاع المضي قدماً بذلك، دون خسارة الكثير من الأصوات أو مناصرين يتمتعون بنفوذ قوي أو التسبب بانقلاب عسكري ضده.

هناك قضية أخرى أثارها بعض الدومينيكانيين الذين التقيتهم هي أن سياسات بالاغور البيئية كانت انتقائية، غير فعّالة أحياناً ومليئة بالعيوب. سمح لمناصريه بالقيام بأشياء مدمّرة للبيئة، مثل الإضرار بمجاري الأنهار باستخراج الحجارة، والحصى، والرمال ومواد البناء الأخرى منها. لم تكن بعض قوانينه، مثل تلك التي تمنع الصيد وتلوث الهواء وبناء سياج المزارع من الأشجار، مجدية. كان يتراجع أحياناً إذا واجه معارضة لسياساته. كانت إحدى مظاهر ضعفه بوصفه مهتماً بالبيئة إخفاقه في التوفيق بين حاجات المزارعين في الأرياف مع المصالح البيئية، وكان يستطيع فعل المزيد لضمان الدعم الشعبي للبيئة. لكنه استطاع مع ذلك القيام بأفعال لصالح البيئة أكثر تنوعاً وصرامة مما أقدم عليه أي سياسي دومينيكاني آخر، أو بالفعل أكثر من معظم السياسيين المعاصرين المعروفين لي في بلاد أخرى.

لدى التفكير بالأمر، يبدو لي أن التفسير الأرجح لسياسات بالاغور أنه كان مهتماً فعلاً بالبيئة، كما ادّعى. كان يذكرها في كل خطاب له تقريباً؛ وقال إن حماية الغابات، والأنهار، والجبال كانت حلماً له منذ طفولته؛ وشدّد على ذلك في خطاباته الأولى عندما أصبح رئيساً سنة 1966 ومجدداً سنة 1986، وفي خطابه توليه منصبه للمرة الأخيرة

(1994). عندما قال الرئيس فيرناندير إن تخصيص 32% من أراضي البلاد للمناطق المحمية أمر مبالغ فيه، أجاب بالاغور إن كل البلاد ينبغي أن تكون منطقة محمية. لكن عن سبب تبنيه لتلك الرؤى المناصرة للبيئة، لم يقدم شخصان الإجابة نفسها لي. قال أحدهم إن بالاغور ربما يكون قد تأثر باحتكاكه مع علماء البيئة أثناء السنوات الأولى من حياته التي قضاها في أوروبة؛ علّق آخر بأن بالاغور كان دائماً معادياً للهاييتيين، وأنه ربما يكون سعى لتطوير بيئة جمهورية الدومينيكان لإبراز تفاوتها مع دمار هاييتي؛ قال ثالث إنه كان قد تأثر بشقيقاته، اللواتي كان مقرباً منهن، ويقال إنهن أُصبن بالخوف من التصحر وطمي الأنهار الذي شاهدنه أثناء حقبة تروجيلو؛ وعلّق رابع أن بالاغور كان يبلغ من العمر 60 سنة عندما استلم الرئاسة بعد تروجيلو و90 سنة عندما تنحّى عنها، لهذا ربما كان يريد حقاً إجراء التغييرات التي رآها حوله في بلده أثناء حياته.

لا أعرف إجابات تلك الأسئلة عن بالاغور. ربما يكون جزء من مشكلتنا في فهمه هو توقعاتنا غير الواقعية بشأنه. ربما نتوقع دون وعي منا أن يكون الناس إما «طيبين» أو «أشراراً»، كما لو أن هناك ميزة وحيدة للفضيلة التي ينبغي أن تشع عبر كل سلوك للإنسان. إذا وجدنا شخصاً فاضلاً أو رائعاً بطريقة ما، ستكون مشكلة كبيرة لنا ألا نعده كذلك بطريقة أخرى. من الصعب علينا الاعتراف أن الناس ليسوا من طينة واحدة، وأنهم بدلاً من ذلك يشكلون فسيفساء من مجموعات مختلفة من التجارب التي لا يوجد غالباً ما يربطها بعضها ببعض.

ربما نواجه المتاعب أيضاً إذا عددنا بالاغور عالم بيئة حقاً لأن سماته الشريرة لا تتفق أبداً والمهتمين بالبيئة. على الرغم من ذلك، كما قال أحد الأصدقاء لي: «كان أدولف هتلر يحب الكلاب وينظف أسنانه، لكن ذلك لا يعني أنه ينبغي لنا أن نكره الكلاب أو نتوقف عن تنظيف أسناننا». كان علي أيضاً التفكير ملياً بتجاربي أثناء عملي في أندونيسية من سنة 1979 إلى سنة 1996 في ظل حكومتها العسكرية المستبدة. كنت أكره وأخشى تلك الديكتاتورية بسبب سياساتها، ولأسباب شخصية أيضاً: خاصة بسبب الأشياء التي فعلتها للكثير من أصدقائي في غينية الجديدة، ولأن جنودها كادوا يقتلونني. دُهشت

عندما اكتشفت أن تلك الديكتاتورية أنشأت نظاماً متكاملاً وفعالاً للمتنزهات الوطنية في غينية الجديدة الأندونيسية. وصلت إلى غينية الجديدة الأندونيسية بعد سنوات من اختبار الديمقراطية في بابوا غينية الجديدة، وتوقعت إيجاد سياسيات بيئية أكثر تطوراً في ظل الديمقراطية الفاضلة مقارنة بحكم ديكتاتورية شريرة. بدلاً من ذلك، كان علي الاعتراف أن العكس صحيح.

لم يدّعِ أي من الدومينيكانيين الذين التقيتهم أنهم فهموا بالاغور. يستعملون عبارات للإشارة إليه مثل «مليء بالتناقضات»، و«مثير للجدل»، و«غامض». أطلق أحد الأشخاص على بالاغور عبارة كان ونستون تشرشل يصف بها روسية: «أحجية يغلفها سر داخل لغز». ذكّرني الجهد المبذول لفهم بالاغور أن التاريخ، وكذلك الحياة نفسها، معقد؛ وأن الحياة والتاريخ غير مناسبين لأولئك الذين يسعون إلى البساطة والاستمرار على نهج واحد.

في ضوء ذلك التاريخ من التأثيرات البيئية في جمهورية الدومينيكان، ما هي الحالة الراهنة لمشكلات البلاد البيئية، ونظام المحميات الطبيعية فيها؟ تقع المشكلات البيئية الرئيسة ضمن ثمانٍ من أصل 12 فئة سيتم إيجازها في الفصل 16: مشكلات تتعلق بالغابات، والموارد البحرية، والتربة، والماء، والفضلات السامة، والأجسام الغريبة، والنمو السكاني، وتأثير البشر.

أصبح تصحر غابات الصنوبر المحلية كبيراً في عهد تروجيلو، ثم انتشر على نطاق أوسع في خمس السنوات التي أعقبت اغتياله. تم تخفيف الحظر الذي فرضه بالاغور على قطع الأشجار من قبل بعض الرؤساء الآخرين الذين جاؤوا بعده. كانت هجرة الدومينيكانيين من المناطق الريفية إلى المدن وما وراء البحار قد خفّفت الضغط على الغابات، لكن التصحر استمر خاصة قرب الحدود مع هاييتي، حيث يعبر هاييتيون يائسون الحدود من بلدهم الخالي تقريباً من الغابات من أجل قطع أشجار لصنع فحم وتجهيز الأرض للزراعة بعد وضع اليد عليها على جانب الدومينيكان. في سنة 2000، عادت مهمة حماية الغابات من القوات المسلحة إلى وزارة البيئة، الأضعف التي تفتقر للتمويل المطلوب، ولهذا فإن المهمة أقل فاعلية مما كانت عليه بين سنتي 1967 و2000.

على طول معظم ساحل الجمهورية، تعرضت مواطن البيئة البحرية والحيد المرجاني لأضرار جسيمة وعمليات صيد جائرة.

كانت كمية التربة التي ذهبت هدراً نتيجة التصحر كبيرة جداً. هناك قلق من أن تؤدي التعرية إلى تكدس الرواسب في الخزانات المائية خلف السدود المستعملة لتوليد الطاقة الكهرومائية. كانت الملوحة قد ازدادت في بعض المناطق المروية، مثل مزارع السكر في باراهونا.

نوعية المياه في أنهار البلاد سيئة جداً الآن بسبب الرواسب الناجمة عن التعرية، إضافة إلى التلوث السمّي ورمي النفايات فيها، وأضحت الأنهار التي كانت حتى عقود قليلة نظيفة وآمنة للسباحة بنية الآن نتيجة الرواسب ولا يمكن السباحة فيها، وتلقي المصانع فضلاتها في الجداول، وكذلك سكان المدن في نظام صرف صحي غير فعّال أو غير موجود أحياناً. كما تعرضت مجاري الأنهار لأضرار جسيمة نتيجة عمليات استخراج مواد لصناعة البناء.

ابتداءً من سبعينيات القرن العشرين، ازداد استعمال المواد الكيماوية، والمبيدات الحشرية، ومبيدات الأعشاب الضارة في المناطق الزراعية الغنية، مثل وادي تسيباو. واستمرت جمهورية الدومينيكان في استعمال التوكسين (سم) الذي تم حظره في بلاد ما وراء البحار التي كانت تصنّعه منذ وقت طويل. وكانت الحكومة قد غضت الطرف عن استعمال التوكسين، لأن زراعة الدومينيكان مربحة جداً. وكان العمال في المناطق الريفية، ولا سيما الأطفال، يضعون التوكسين على المنتجات الزراعية دون حماية للوجه أو اليدين. نتيجة لذلك، أصبحت تأثيرات التوكسين الزراعي في صحة البشر موثقة تماماً الآن. كنت قد دهشت من الغياب شبه الكامل للطيور في مناطق وادي تسيباو الزراعية الغنية: إذا كان التوكسين سيئاً للغاية على الطيور، سيكون سيئاً أيضاً على البشر. ظهرت مشكلات أخرى للتوكسين في منجم الحديد/النيكل الكبير في فالكونبريدج، الذي يملأ دخانه الهواء إلى جانب أجزاء من الطريق العام بين أكبر مدينتين في البلاد (سانتو دومينغو وسانتياغو). كان قد تم إغلاق منجم ذهب روزاريو مؤقتاً بسبب افتقار البلاد لتقانة معالجة السيانيد وتدفق الأسيد فيه. يلف كل من سانتو دومينغو وسانتياغو مزيج

من الضباب والدخان، الذي ينتج عن حركة مرور كثيفة باستعمال مركبات عفا عليها الزمن، وزيادة استهلاك الوقود، ووفرة مولدات الكهرباء الخاصة التي يحتفظ بها الناس في منازلهم وأماكن عملهم بسبب الانقطاع المستمر للتيار الكهربائي. (شهدت عدة انقطاعات للتيار الكهربائي كل يوم عندما كنت في سانتو دومينغو، وبعد عودتي كتب لي أصدقائي من الدومينيكان أنهم كانوا يعانون آنذاك من انقطاع يمتد 21 ساعة).

فيما يخص الأجسام الغريبة، من أجل إعادة زرع أشجار في الأراضي التي تم اقتطاعها منها وتأهيل تلك التي ضربتها الأعاصير في العقود الماضية، كان البلد قد لجأ إلى أنواع غريبة من الأشجار تنمو بسرعة أكبر من صنوبر الدومينيكان الأهلي بطيء النمو. كان بين الأنواع الغريبة التي رأيتها منتشرة بكثرة صنوبر هندوراس، وكازوارينا، وعدّة أنواع من الأكاسيا (السنط)، وشجرة الساج. وكانت بعض تلك الأنواع الغريبة قد ازدهرت، فيما أخفقت أخرى. أثارت تلك الأشجار المخاوف لأن بعضها كان عرضة لأمراض تقاومها أشجار صنوبر الدومينيكان الأهلية، لهذا يمكن أن تفقد المنحدرات التي تتم زراعتها بتلك الأنواع تربتها مجدداً إذا هاجمت الأمراض أشجارها.

على الرغم من أن نسبة النمو السكاني في البلاد قد تراجعت، إلا أنها ما تزال تبلغ نحو 1.6% كل سنة.

الأكثر خطورة من ازدياد نمو السكان في البلاد هو تأثير النمو المتسارع للفرد الواحد. (أعني بتلك العبارة، التي ستتكرر فيما تبقى من هذا الكتاب، معدل استهلاك الموارد وإنتاج الفضلات لكل شخص: أعلى فيما يخص مواطني العالم الأول المعاصر من المعدل الخاص بمواطني العالم الثالث أو أي شعب في الماضي. تأثير المجتمع الكلي يعادل تأثير كل فرد فيه مضروباً بعدد سكانه). جعلت رحلات الدومينيكانيين إلى ما وراء البحار، وزيارات السياح إلى البلاد، والتلفاز الناس يتعرفون جيداً إلى معايير عيش أعلى في بورتوريكو والولايات المتحدة. تنتشر اللوحات الإعلانية عن منتجات استهلاكية في كل مكان، ورأيت باعة متجولين يبيعون هواتف خلوية وأقراصاً مدمجة عند كل التقاطعات الرئيسة في المدن. يصبح البلد أكثر اعتياداً على الاستهلاك الذي لا يغذيه اقتصاد وموارد جمهورية الدومينيكان نفسها، وإنما يعتمد جزئياً على الأموال التي يرسلها

الدومينيكانيون الذين يعملون وراء البحار. ينتج عن كل أولئك الناس الذين يستفيدون من كميات كبيرة من المنتجات الاستهلاكية كميات كبيرة موازية من الفضلات التي تغمر نظام التخلص منها. و للمرء أن يرى القمامة متراكمة في الجداول، وعلى طول الطرق، وفي شوارع المدينة، وفي الأرياف. كما قال دومينيكاني لي: «لن تكون النهاية هنا على شكل زلزال أو إعصار، وإنما عالم مدفون بالقمامة».

يعالج نظام مناطق المحميات الطبيعية في البلاد بشكل مباشر كل تلك التهديدات عدا النمو السكاني وتأثير الاستهلاك. النظام شامل ويتألف من 74 محمية من أنواع مختلفة (متنزهات وطنية، محميات بحرية، وهكذا) ويغطي ثلث مساحة البلاد البرية. هذا إنجاز مثير للاهتمام لبلد صغير، وفقير، ومكتظ بالسكان لا يتعدى دخل الفرد فيه عُشر ما هو عليه في الولايات المتحدة. المثير للاهتمام أيضاً أن نظام المحميات ذاك لم يكن وراءه منظمات بيئة دولية وإنما منظمات أهلية غير حكومية في الدومينيكان. في الأبحاث التي أجريتها مع ثلاثة من تلك المنظمات في الدومينيكان - أكاديمية العلوم في سانتو دومينغو، وصندوق موسكوسو بيلو، وفرع سانتو دومينغو للحفاظ على الطبيعة (تنفرد الأخيرة بين المنظمات في الدومينيكان بأنها فرع لمنظمة دولية وليست محلية خالصة) - وجدت أن كل موظفيها دون استثناء دومينيكانيون. يتناقض ذلك مع ما هو سائد في بابوا غينية الجديدة، وأندونيسية، وجزر سليمان، وبلاد نامية أخرى حيث يحتل علماء أجانب مواقع رئيسة فيها ويعملون بصفة مستشارين زائرين أيضاً.

ماذا عن مستقبل جمهورية الدومينيكان؟ هل سينجو نظام المحميات من الضغوط التي يواجهها؟ وهل هناك أمل للبلاد؟

واجهتني مجدداً عندما طرحت تلك الأسئلة مجموعة متنوعة من الآراء حتى بين أصدقائي من الدومينيكان. تبدأ أسباب التشاؤم البيئي مع حقيقة أن قبضة جواكين بالاغور الحديدية لم تعد تمسك نظام المحميات الذي يعاني نقصاً في التمويل والحماية، ولم يتلق دعماً كافياً من رؤساء معاصرين كان قد حاول بعضهم تقليل مساحته أو حتى بيعها. ولا يوجد في الجامعات سوى قلة من العلماء المدربين جيداً، لهذا لا يمكنهم بالمقابل تعليم كادر من الطلاب بشكل جيد، ولا تقدم الحكومة دعماً كافياً للأبحاث العلمية.

كان بعض أصدقائي خائفين من تحول محميات الدومينيكان إلى متنزهات موجودة على الورق فقط وليس على أرض الواقع.

من ناحية أخرى، سبب رئيس للتفاؤل بشأن البيئة هو حركة متنامية، منظمة جيداً تعمل من الأسفل إلى الأعلى للحفاظ على بيئة البلاد التي لا سابقة لها تقريباً في العالم النامي. يتحدى أفراد تلك الحركة الحكومة، وقد تم إرسال بعض أصدقائي في منظمات غير حكومية إلى السجن بسبب تلك التحديات لكنهم خرجوا منه وتابعوا تحدّيهم. حركة الحفاظ على البيئة في الدومينيكان مثابرة وفعّالة مثلما هو حال تلك الحركات التي أعرفها في أي بلد آخر. لهذا، كما هي الحال في أماكن أخرى من العالم، أرى في جمهورية الدومينيكان ما وصفه صديق بأنه «سباق خيول تزداد سرعته تدريجياً ولا يمكن توقع نتائجه» بين عوامل مدمّرة وأخرى بنّاءة. تستجمع كل من التهديدات التي تطال البيئة، وحركة الحفاظ على البيئة قواهما في جمهورية الدومينيكان، ولا يمكننا توقع من سينتصر أخيراً.

بشكل مشابه، تثير إمكانيات البلاد الاقتصادية والاجتماعية اختلافاً في الآراء. خمسة من أصدقائي الدومينيكانيين يشعرون الآن بتشاؤم عميق، دون أمل تقريباً. يشعرون بشكل خاص بالإحباط من ضعف وفساد الحكومات الحالية التي تبدو مهتمة فقط بمساعدة السياسيين وأصدقائهم، وبالمعوقات الشديدة الحالية التي يعانيها اقتصاد الدومينيكان. تتضمن تلك المعوقات: الانهيار الكامل لسوق تصدير السكر المهم، وانخفاض قيمة العملة، وازدياد المنافسة من دول أخرى كلفة العمالة فيها أقل التي أنشأت مناطق تجارية حرة لتصدير المنتجات منها، وانهيار مصرفين رئيسين، وإفراط الحكومة في الاقتراض والإنفاق. النزعة الاستهلاكية كبيرة وبعيدة عن المستويات التي يمكن للبلد أن يدعمها. وفقاً لرأي أكثر أصدقائي تشاؤماً، تنزلق جمهورية الدومينيكان نحو حالة الانهيار التي أصابت هاييتي، لكنها تندفع إليها بسرعة أكبر مما فعلت الأخيرة: سيكتمل الانزلاق نحو الانهيار الاقتصادي، الذي استغرق الوصول إليه في هاييتي قرناً ونصف القرن، أثناء بضعة عقود فقط في جمهورية الدومينيكان. وفقاً لوجهة نظره، ستنافس عاصمة الجمهورية سانتو دومينغو في البؤس عاصمة هاييتي بورت -أو- برنس، حيث

يعيش معظم السكان تحت خط الفقر في تجمعات بائسة تفتقر للخدمات العامة، فيما ترتشف النخبة الثرية النبيذ الفرنسي في ضواحيها المستقلة.

ذلك هو التصور الأسوأ. قال بعض أصدقائي الدومينيكانيين الآخرين إنهم كانوا قد شاهدوا حكومات تأتي وتذهب طوال الـ40 سنة الماضية، وأن الحكومة الحالية ضعيفة وفاسدة بشكل خاص، لكنها ستخرج من السلطة في الانتخابات القادمة، ويبدو كل المرشحين للرئاسة أفضل من الرئيس الحالي. (في الواقع، خسرت الحكومة الانتخابات فعلاً بعد بضعة أشهر من تلك المحادثة). هناك حقائق مهمة عن جمهورية الدومينيكان تجعل مستقبلها لامعاً وهي أنها بلد صغير تصبح فيه مشكلات البيئة ظاهرة للعيان للجميع. إنها أيضاً مجتمع «مواجهة» حيث يتمتع الأفراد الذين يمتلكون المعرفة اللازمة بعلاقات مع وزراء الحكومة، بخلاف الوضع في الولايات المتحدة. ربما يكون الأكثر أهمية أن يتذكر المرء أن جمهورية الدومينيكان بلد مرن كان قد مرّ بتاريخ من المشكلات الأشد وطأة مما هي عليه اليوم. كان قد تحمل 22 سنة من الاحتلال الهاييتي، ثم تعاقب عليه رؤساء ضعفاء أو فاسدون من سنة 1844 إلى سنة 1916 ومجدداً بين سنتي 1924 و1930، واحتلال عسكري أمريكي من سنة 1916 إلى سنة 1924 ومن 1965 إلى 1966. نجح في إعادة بناء نفسه بعد 31 سنة من حكم رافائيل تروجيلو، أحد أكثر الطغاة فتكاً وقسوة في تاريخ العالم المعاصر. من سنة 1900 إلى سنة 2000، عانت جمهورية الدومينيكان تغيرات اجتماعية – اقتصادية أكثر قسوة من أي بلد آخر في العالم الجديد.

بسبب العولمة، ما يحدث لجمهورية الدومينيكان لا يؤثر في الدومينيكانيين فحسب؛ وإنما على باقي العالم أيضاً. يؤثر ذلك بشكل خاص في الولايات المتحدة التي تقع على بعد 600 ميل، ويعيش فيها حالياً مليون دومينيكاني. وتضم مدينة نيويورك حالياً ثاني أكبر عدد من المواطنين الدومينيكانيين في أي مدينة في العالم، وتأتي فقط بعد عاصمة الجمهورية سانتو دومينغو. توجد أيضاً أعداد كبيرة من الدومينيكانيين في ما وراء البحار في كندا، وهولندة، وإسبانية، وفنزويلا. وكانت الولايات المتحدة قد اختبرت سابقاً كيف أن أحداثاً في بلد كاريبي يقع إلى الغرب مباشرة من هندوراس –كوبا– قد هدّد بقاءها

سنة 1962. لهذا فإن اهتمام الولايات المتحدة بنجاح جمهورية الدومينيكان في حل مشكلاتها كبير جداً.

ماذا عن مستقبل هاييتي؟ إنها البلد الأفقر حالياً وبين الأكثر اكتظاظاً بالسكان في العالم الجديد، وهي مع ذلك تصبح أكثر فقراً واكتظاظاً بالسكان إذ تبلغ نسبة نمو عدد السكان 3% تقريباً كل سنة. هاييتي فقيرة جداً، وغير مكتفية أبداً بالموارد الطبيعية والبشرية المدربة أو المتعلمة، لهذا تصبح رؤية أي تطور فيها صعبةً. إذا نظر المرء بدلاً من ذلك إلى العالم الخارجي للحصول على العون عبر المساعدات الأجنبية الحكومية، أو مبادرات المنظمات غير الحكومية، أو الجهود الخاصة، سيجد أن هاييتي تفتقر للقدرة على الاستفادة من المساعدة الخارجية بفاعلية. على سبيل المثال، كان برنامج المساعدات الأمريكي يو-إس-إيد USAID قد ضخ أموالاً إلى هاييتي أكبر سبع مرات من تلك التي منحها لجمهورية الدومينيكان، لكن النتائج في هاييتي كانت هزيلة بسبب افتقارها للأشخاص والمنظمات الخاصة بها التي يمكنها الاستفادة من المساعدة. أجاب كل من يعرف هاييتي وسألته عن حالتها بكلمتي «لا أمل». أجاب معظمهم ببساطة: إنهم لا يرون أملاً. بدأ أولئك الذين كانوا يرون أملاً بالإقرار بأنهم يشكلون أقلية وأن معظم الناس لا يرون أملاً، لكنهم عرضوا بعد ذلك بعض الأسباب لتشبثهم بالأمل، مثل احتمالات مكافحة التصحر التي تنتشر من محميات غابات هاييتي الصغيرة، ووجود منطقتين زراعيتين في هاييتي تنتجان فائضاً من الطعام لتوزيعه داخلياً على العاصمة بورت - أو- برنس والمناطق السياحية على الساحل الشمالي، وإنجاز هاييتي الجدير بالملاحظة الذي يتمثّل في إلغاء جيشها دون الانزلاق إلى مستنقع دائم من الحركات الانفصالية والمليشيات المحلية.

تماماً كما يؤثر مستقبل جمهورية الدومينيكان في الآخرين بسبب العولمة، تؤثر هاييتي أيضاً. تماماً كما حدث مع الدومينيكانيين، يتضمن تأثير العولمة ذاك تأثيرات الهاييتيين الذين يعيشون وراء البحار - في الولايات المتحدة، وكوبا، والمكسيك، وأمريكة الجنوبية، وكندا، والبهاما، وجزر الأنتيل، وفرنسة. الأكثر أهمية من ذلك هو «عولمة» مشكلات هاييتي ضمن جزيرة هيسبانيولا، وذلك عبر تأثيرات هاييتي في جمهورية الدومينيكان

المجاورة. بالقرب من حدود الدومينيكان، ينتقل الهاييتيون من منازلهم إلى الجمهورية بحثاً عن أعمال توفر لهم لقمة العيش على الأقل، وعن الحطب الذي يعيدونه معهم إلى وطنهم المتصحر. يحاول بعض الهاييتيين كسب لقمة العيش بالعمل مزارعين في أرض الدومينيكان قرب الحدود، حتى في أراضٍ غير خصبة يهجرها المزارعون الدومينيكانيون. يعيش ويعمل أكثر من مليون شخص من خلفية هاييتية في جمهورية الدومينيكان، معظمهم بشكل غير قانوني، تجذبهم الفرص الاقتصادية الأفضل وتوافر الأرض في الدومينيكان، مع أن الأخيرة نفسها بلد فقير. لهذا كانت هجرة أكثر من مليون دومينيكاني إلى ما وراء البحار مترافقة مع وصول العدد نفسه من الهاييتيين، الذين يشكلون الآن 12% من عدد السكان. يحصل الهاييتيون على أجور منخفضة ويؤدون أعمالاً صعبة لا يرغب فيها الكثير من الدومينيكانيين حالياً - خاصة في صناعة البناء، والأعمال الزراعية، وقطع قصب السكر المتعب والمؤلم، وفي صناعة السياحة، الحراسة، والخدمة، وقيادة الدراجات الهوائية المستعملة في النقل (الدفع بالدراجات الهوائية التي تحمل كميات كبيرة من السلع لبيعها أو إيصالها)-. يستفيد اقتصاد الدومينيكان من تلك العمالة الهاييتية منخفضة الأجور، لكن الدومينيكانيين مترددون بالمقابل في تقديم التعليم، والرعاية الطبية، والمنازل لهؤلاء فيما لا يستطيعون الحصول عليها بأنفسهم نتيجة نقص التمويل. الدومينيكانيون والهاييتيون في جمهورية الدومينيكان منقسمون ليس اقتصادياً فحسب؛ وإنما ثقافياً أيضاً: يتكلمون لغتين مختلفتين، ويرتدون ملابس مختلفة، ويتناولون طعاماً مختلفاً، ومظهرهم العام مختلف أيضاً (تبدو بشرة الهاييتيين داكنة ومظهرهم أفريقي).

فيما كنت استمع إلى أصدقائي الدومينيكانيين يصفون وضع الهاييتيين في جمهورية الدومينيكان، دهشت من الشبه الشديد مع وضع المهاجرين غير القانونيين من المكسيك ودول أمريكة اللاتينية الأخرى في الولايات المتحدة. سمعت تلك العبارات عن «أعمال لا يريدها الدومينيكانيون»، و«أعمال بأجر منخفض لكنها على الرغم من ذلك أفضل مما هو متوافر في الوطن»، و«جلب هؤلاء الهاييتيون الإيدز، والسل، والملاريا»، و«يتكلمون لغة مختلفة وتبدو بشرتهم داكنة أكثر»، و«لسنا ملزمين ولا يمكننا تقديم الرعاية الطبية، والتعليم، والمنازل لمهاجرين غير شرعيين». بتلك العبارات، كل ما عليّ فعله هو استبدال

كلمات «مهاجرين من أمريكة اللاتينية» و«مواطنين أمريكيين» بكلمتي «هاييتيين» و«دومينيكانيين»، وستكون النتيجة تعبيراً نموذجياً عن المواقف الأمريكية نحو المهاجرين من أمريكة اللاتينية.

بالمعدل الحالي لمغادرة الدومينيكانيين جمهورية الدومينيكان إلى الولايات المتحدة وبورتوريكو فيما يغادر الهاييتيون هاييتي إلى جمهورية الدومينيكان، تصبح الجمهورية دولة تضم أقلية هاييتية متزايدة، تماماً كما تصبح الكثير من المناطق في الولايات المتحدة تضم أعداداً متزايدة من «اللاتينيين» (أي من أمريكة اللاتينية). يجعل ذلك من مصلحة جمهورية الدومينيكان أن تحل هاييتي مشكلاتها، كما هي مصلحة الولايات المتحدة بأن تحل أمريكة اللاتينية مشكلاتها. تتأثر جمهورية الدومينيكان بهاييتي أكثر من أي بلد آخر في العالم.

هل يمكن لجمهورية الدومينيكان أن تؤدي دوراً بنّاءً في مستقبل هاييتي؟ من النظرة الأولى، لا تبدو الجمهورية مصدراً محتملاً لحلول مشكلات هاييتي؛ فالجمهورية فقيرة ولديها ما يكفيها من المشكلات في مساعدة مواطنيها، والبلدان منفصلان بتلك الثغرة الثقافية التي تتضمن لغتين مختلفتين وصورتين ذاتيتين متمايزتين. هناك حالة عداء قديمة عميقة الجذور بين الطرفين، وينظر الكثير من الدومينيكانيين إلى هاييتي على أنها جزء من إفريقية ويعدون سكانها أقل منهم مكانة، ويشك الكثير من الهاييتيين بالمقابل في التدخل الأجنبي. لا يمكن أن ينسى الهاييتيون والدومينيكانيون تاريخ الأعمال الوحشية التي مارسها كل بلد بحق الآخر. يتذكر الدومينيكانيون الغزوات التي قام بها الهاييتيون لجمهورية الدومينيكان في القرن التاسع عشر، بما في ذلك 22 سنة من الاحتلال (نسوا المناحي الإيجابية لذلك الاحتلال، مثل تحرير البلاد من العبودية)، ويتذكر الهاييتيون أسوأ مذابح تروجيلو وإصداره الأوامر بقتل كل الـ20.000 هاييتي (باستعمال السكاكين) الذين يعيشون في شمال غرب جمهورية الدومينيكان وأجزاء من وادي تسيباو بين 2 و8 تشرين الأول 1937. اليوم، ليس هناك تعاون كبير بين الحكومتين، اللتين تنظران إلى بعضهما بتشكك أو بعدائية.

لكن لا تغير أي من هذه الاعتبارات حقيقتين رئيستين: أن بيئة الدومينيكان تندمج بشكل متواصل مع بيئة هاييتي، وأن هاييتي هي البلد الذي يمتلك أقوى تأثير في جمهورية الدومينيكان. كانت بعض علامات التعاون بين البلدين قد بدأت بالظهور مؤخراً.

على سبيل المثال، عندما كنت في جمهورية الدومينيكان، كانت مجموعة من العلماء الدومينيكانيين توشك على الذهاب للمرة الأولى إلى هاييتي لحضور اجتماعات مشتركة مع علماء هاييتيين، وكان قد تم تحديد موعد لزيارة مقابلة لعلماء هاييتيين إلى سانتو دومينغو. إن كان ينبغي تطوير الجزء الأكبر من هاييتي، لا أرى كيف يمكن تحقيق ذلك دون مزيد من التعاون مع جمهورية الدومينيكان، على الرغم من أن ذلك غير مرغوب فيه ولا يخطر على بال معظم الدومينيكانيين اليوم. في النهاية، لا يمكن ألا تتعاون الجمهورية مع هاييتي. على الرغم من أن موارد الجمهورية الخاصة نادرة، إلا أنه يمكن بالحد الأدنى الاستفادة منها لتكون جسراً -ينبغي استكشافه بطرق عديدة- بين العالم الخارجي وهاييتي.

هل يؤمن الدومينيكانيون بوجهات النظر تلك؟ في الماضي، حقق شعب الدومينيكان أعمالاً أكثر صعوبة من التفاعل البنّاء مع هاييتي. بين العديد من الأشياء المجهولة التي تحيط بمستقبل أصدقائي في الدومينيكان، أرى أن ذلك أكبر تحدٍ يواجههم.

obeikandl.com